إلى الطائف ...

ملحمة شعرية

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

النبي العربي في طريقه إلى «الطائف»، وفي صحبته مولاه زيد ابن حارثة — كما يروى المقريزي وابن الأثير المؤرخ وكان الشهر يناير من سنة ٦٢٠ ميلادية، والثلج الأبيض الناصع يجلل ذرا جبل غزوان، وهو أبرد مكان في الحجاز. وقد شهد هذا العام وفاة اثنين من أعز أنصار النبي: عمه أبي طالب الذي كان يدفع عنه أذى المشركين، وزوجه خديجة أم المؤمنين التي وقفت بجانبه أربعة وعشرين عاما وستة أشهر. ولم يبق له من أوفى الأوفياء إلا مولاه وربيبه زيد بن حارثة.

زيد:

يا نبي الهدى تلوح لعيني ... قمة كللت ببيض الثلوج
هي في الطائف الذي يتحلى ... بالروابي، يزدهي بالبروج
قمة أشرفت على السهل والحز ... ن كإشراف شاهقات البروج
قد خرجنا بها إلى الله نبغي ... نصرة في سبيل هذا الخروج
إن في الواحة الخصيبة مأوى ... للطايا، وراحة للحدوج

محمد:

هيا بنا الى أشراف ثقيف في «الطائف» ندعوهم إلى الله!

زيد:

الله جارك حين تنتقل ... والله جارك حين ترتحل
يا ضاربا في الصبر أمثلة ... بك في الشدائد يضرب المثل
هان الطريق فسر عليه كما ... سارت على أشواكها الرسل!
هذا سبيلك غير ذي عوج ... حاشاك ما ضلت بك السبل
المشركون عليه ترصدنا ... منهم لحاظ الكيد والقتل
الله جارك لا تخف أحدا ... والله حسبك أيها البطل
هذي «ثقيف» وتلك أربعها ... فلعلها بهداك تمتثل..
طال الطريق على غوايتها ... ومضت بها آباؤها الأول
فلعلها تهفو إليك كما ... تهفو إلى أعطانها الإبل!

وهنا يمرج النبي على جماعة من أشراف ثقيف ويدعوهم إلى الإسلام فيجيبه واحد منهم:

رجل من ثقيف: —

يا راحلا من بطن مكة يبتغي ... في ذلك الوادي الخصيب فكاكا
هل جئت تنشر في ثقيف دعوة ... أم جئت ترصد بينها الأفلاكا؟!
دعها وما ألفته من آبائها ... واترك لها الأزمار والاشواكا!
هي رحلة لا ترج منها نصرة ... أجهدت في وعث الطريق حطاكا
لو كان ربك مرسلا أحداً لنا ... أفارأى من مرسليه سواكا؟!

وهنا تذهب الجماعة في قهقهة مدوية وترسل ضحكاتها عالية، فيقوم آخر منهم ويقول:

ومن أطلعني على الأزمة متى يحسها ويجد لها قلبه وعقله مساً أليما. ولكن هؤلاء وأولئك لا يجرؤون، مع هذا، على السير بعيدا فيما يفكرون فيه، إذ لا يجدون الوسيلة الصحيحة لمعرفة الإسلام ولا يطمئنون مع ذلك إلى هذا الدين مع ما يرون من سوء حالة المسلمين علينا إذاً، أن نقرب هذا الدين، وأن نجلوه للطالبين: عقيدة وأخلاقا ونظاما اجتماعيا، في كتاب قريب التناول نترجمه للغات جميعا في الغرب والشرق، ثم نوزعه في أقطار الأرض كلها. بهذا وحده يستطيع أن يعرف الإسلام من يريد، وبهذا نكون أدينا واجبا لهؤلاء الحائرين وما أكثرهم، وللانسانية كلها، لأن أكثر ما كتبه غير المسلمين عن الإسلام تعوزه الدقة أو الإنصاف.

إني لأعرف ما يتطلب هذا العمل الضخم من جهود ومال، ولكني اعتقد أنه مع الإرادة الطيبة تستطيع أن تصل منه إلى ما تريد إن شاء الله الذي يوفق للخير ويعين عليه. وعندنا من رجال الأزهر والجامعة من يحتاج البهم هذا العمل تأليفا وترجمة ولنا من ذوي النعمة الطويلة واليسار المريض من لا تؤودهم التكاليف المالية.

ولعل فضيلة أستاذنا الأكبر شيخ الجامع الأزهر ينشرح صدره لهذا العمل فيتقدم الجميع في الدعوة له وإعداد العدة لتنفيذه؛ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

محمد يوسف موسى

رجل آخر من ثقيف : —

إن كنت تحمل حقا رسالة قدسية
فأنت أعظم قدرا من أن ترد التحيه
وإن تخرصت كذبا على إلاه البريه
فأنت أهون شأنا من خوضنا فى القضية

وتستمر الجماعة الضالة الهازئة فى ضحكاتها ، وهم يسبون النبى ويرمونه بالحجارة ويصيحون به . فيقوم واحد منهم ، ويتجه إلى جماعة من العبيد والسفهاء يغريهم به قائلا .

ثقفى ثالث . —

ما بثقيف حاجة إلى الدعارى والكذب
أيقصد المغلوب فى مكة بيننا الغلب ؟
عجيبة منه تثير فى نفوسنا العجب !
ما للفتى والرسالات لدينا والكتب
سيفسد الأمر عليكم بالحديث والخطب
فما لنا فى دينه شأن ولا نا أرب
الخير كل الخير فى رمان (ورج) والعنب
نعتصر الخمرة منه فى أباريق الذهب

وهنا يكرر الفتيان والسفهاء هذا البيت الأخير ، ثم يستمرون فى عربدتهم وسخفهم ، حتى يلجئوا النبى إلى حائط ، وقد أدموا رجليه ... فحين يرجع عنه السفهاء ويصيبه بعض الاطمئنان يتجه إلى ربه قائلا .

محمد :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، اللهم يا أرحم الراحمين! أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى . ولكن عافيتك هى أوسع . إنى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل بى سخطك ! لك العتبى حتى ترضى ، لا حول ولا قوة إلا بك »

وهنا يرى عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة ما حل بالرسول فتتحرك الشفقة عليه فى قلبيهما ، ويدعوان غلامهما النصرانى واسمه « عداس » ، قائلين له :

عتبة وشيبة :

عداس خذ عنبا من بعض كرمتنا
وأعطه — فى حنان — ذلك الرجلا !
إنا نرى الجوع يبدو من نواجذه !
فما تبالغ من زاد ولا أكلا
إن المروءة تأبى أن نجوعه
وأن يقال : غريب بيننا هزلا ... !

ثم يذهب « عداس » إلى النبى ويضع طبق العنب بين يديه فيبدأ النبى يلتقط حبة منه قائلا . باسم الله . فينظر « عداس » إلى وجهه ثم يقول

عداس . —

هذ كلام لم يقله الناس فى هذا البلد
ولم أكن أسمعه ولم يدر لى فى خلد ... !
هذا كلام واحد يسبح الله الأحد !

فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم

محمد : —

ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟

عداس : —

أنا من « نينوى » ودينى دين يلتمى للمسيح عيسى بن مريم

محمد : —

أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟

عداس : —

يونس الصالح بن متى ؟ أجبنى كيف تدرى بأمره كيف تعلم؟

محمد : —

ذلك أخى كان نبياً ، وأنا نبى !

وهنا يكب « عداس » على رأس الرسول يقبلها ويقبل يديه ورجليه ، فيراه سيداه عتبة وشيبة . فيقولان له حين يرجع إليهما.

عتبة وشيبة : —

ويلك يا عداس ما هذا بفعل طيب
ماذا الذى صنعته مع الغريب الأجنبى
قبلت منه رأسه وزدت تحت الركب
فما الذى أبقيته لهدنا من أدب ؟
وما الذى عادلنا فى قومنا من أرب